منهج السيد الشهيد محمد باقر الصدر في الإصلاح الحوزوي

الشيخ جميل مال الله الربيعي
أستاذ في الحوزة العلمية في التجف الأشرف

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين. الحوزة العلمية قلعة الإسلام الرصينة الضاربة في عمق التاريخ الرسالي منذ عصر الأئمة الأطهار^١ الذين سنوا لنا مناهج نشر الإسلام، وتبليغه، وحمائته من هجمات أعدائه على طول التاريخ في تدريسه، ودراسته، وتوضيح معالمه الإلهية؛ لإعداد الفقهاء ذوي البصيرة الثاقبة لحمل رسالة الله تعالى إلى البشرية أجمع تعليماً، وتبليغاً، وهدايةً، وإرشاداً، وتوجيه الأمة لأخذ دينها من تلاميذهم وطلابهم الذين تربوا في كنفهم، وكانوا يأمرؤن أصحابهم بالتصدي للإرشاد والتوجيه والفتوى في أوساط الناس، قال الإمام أبو جعفر الباقر × لأبان بن تغلب: <اجلس في مسجد المدينة، وأفت الناس، فإنني أحب أن أرى في شيعتي مثلك>، وقال له الصادق ×: <يا أبان، ناظر أهل المدينة فإنني أحب أن يكون مثلك من رواتي ورجالي>^(١)، وقال له أيضاً: <جالس أهل المدينة فإنني أحب أن يرى في شيعتنا مثلك>^(٢).

وبذلك حصنوا دين الله عز وجل من هجمات أعدائه منذ العصر الأموي إلى اليوم، وحفظوا تراث النبوة من الضياع، والتحريف، وهذا هو المنطلق للحوزات العلمية منذ عصور الأئمة^٢، وإلى اليوم، وبذلك أصبحت الحوزة العلمية (واجهت الإسلام في نظر الأمة، وهي المعبر الشرعي عن هذا الإسلام، وأحكامه، ومفاهيمه، وحلوله لمشاكل الحياة، وهذه النظرة من الأمة إلى الحوزة ليست أمراً تلقائياً، أو مدسوساً، أو مصطنعاً، وإنما هي جزء من التخطيط الواعي الذي وضعه سيدنا صاحب العصر × حينما أنهى عهد النيابة الخاصة، واستبدل ذلك بالنيابة العامة، وكان معنى الاستبدال بالنيابة العامة جعل الطليعة الواعية المتفاعلة مع الإسلام فكرياً، وروحياً، وعاطفياً، جعل هذه الطليعة الواعية العاملة العادلة هي المسؤولة عن حماية الرسالة)^(٣).

ولذلك نقول بضرر قاطع: لولا ما قام به جهابذة الإسلام في جمع تراث أهل بيت

العصمة والنبوة^٨ كما في الكتب الأربعة لضاع تراث آل محمد^٩، ولولا ما قام به العلماء الآخرون في وضع القواعد والأسس؛ لتمييز الصحيح من السقيم لاختلط الحق بالباطل، ولا يمكن تصور الجهد الذي بذلوه في جمع الأحاديث والروايات مع قلة المصادر، وتباعد البلدان، فلا نعجب إذا سمعنا أن أحدهم يقضي عقدين أو ثلاثة أو أكثر من عمره ينتقل من بلد إلى بلد على ظهور الحيوانات؛ ليجمع أحاديث الرسالة، وهل يمكن تصور ما بذلوه من جهد وعناء، وما تعرضوا له من مخاطر؟

كل هذا قام به رجال الحوزة العلمية منذ عصر الشيخ المفيد، والشرفيين الرضيين، والشيخ الطوسي، وابن إدريس، والعلامة الحلي، والمحقق الحلي، والشهيد الأول، والثاني... كل تلك الجهود الجبارة قاموا بها لأجل حفظ الرسالة، ولولا ذلك لظلّ الناس عن دينهم، ولتغير مسار الحياة الإسلامية، ولكن رغم كل تلك العقبات والمصاعب التي وقعت في طريق حملة الرسالة، فقد أدوا رسالتهم بكل تفان وإخلاص، وبقيت آثارهم منبعاً فياضاً تغترف منه الأجيال على طول المسيرة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر إن جميع الأحداث سواء كانت هجمات فكرية، أو عسكرية تهدد مصير الإسلام إلا وكان لعلماء الإسلام الدور الريادي والقيادي، والطليعي في ردّ الأعداء، ودحض شبهاتهم؛ لحفظ الإسلام من التحريف، والأمة من الانحراف، فمنذ غزو التتر لبلاد المسلمين، وإلى اليوم تجد علماء الإسلام الواعين المخلصين في خطّ الدفاع الأول بحيث يمكن القول: (إن كل حركة إصلاحية، وكل كفاح اجتماعي وسياسي، وكل تحول في العالم الإسلامي إما أن يكون قاده العلماء، أو كانوا ضمن قادته، وهذا ثابت في التاريخ) مع كل محاولات الأعداء لطمس هذه الحقائق، فمنذ عصر نصير الدين الطوسي الذي واجه وحشية التتر بحكمة بالغة، واستطاع أن يحفظ كثيراً من التراث العلمي للمسلمين من الحرق والتضييع، واستطاع أخيراً أن يجذبهم للإسلام! مروراً بالميرزا الشيرازي قائد ثورة العشرين، والسيد مهدي الحيدري، والشيخ مهدي الخالصي الذين ضربوا المثل الأعلى في التضحية والفداء، ووصولاً إلى الشيخ كاشف الغطاء، والسيد الحكيم، والشهيد الصدر في مواجهة المد العلماني الملحد

الذي كاد أن يغزو بلاد الرافدين، وأخيراً ما توجّه الإمام الخميني بثورته الجبارة التي هزّت عروش الظالمين، وزلزلت قلاع الكفر العالمي في الشرق والغرب، ولا ننسى موقف المرجعية الرشيدة في النجف الأشرف في مواجهة الطغيان البعثي الصليبي، وما قدمته من جهود جبارة؛ وما بذلته من دماء جهابذة العلم مدرّسين وخطباء وشعراء وكتّاب ومراجع تقليد عظام لحفظ الحوزة العلمية من الانهيار، والأمة الإسلامية من الانحراف، تلك الجهود التي تمخّضت عن استشهاد المئات من العلماء، والأساتذة، والخطباء، وعلى رأسهم خمسة من مراجع التقليد من الآيات العظام: السيّد محمد باقر الصدر، والسيّد محمد الصدر، والشيخ الغروي، والشيخ البروجردي، والسيّد محمد باقر الحكيم رحمهم الله جميعاً؛ وحفظ الله المرجع السيّد علي السيستاني ليكون صمام أمان من حرب أهلية مدمرة خطّطت لها دوائر الاستكبار العالمي بإشعال نار الفتنة حين هدّمت ضريح الإمامين العسكريين، ولولا موقفه الحكيم في ضبط الهيجان الشيعي كردّ فعل عنيف على هذه الكارثة التي تجاوزت الخطوط الحمراء، واستفزّت المشاعر، وجرحت العواطف، ومست المقدّسات لحدثت حروب أهلية أتت على الأخضر واليابس، ولكن موقفه الحكيم في تهدئة الشارع الفائر استطاع أن يسحب الصّاعق من القنبلة الموقوتة، وأفضل المؤامرة الكبرى التي قدّر لها أن تحلّ الدمار النهائي للشعب العراقي سنةً وشيعَةً. أبعد كل هذا هل يمكن لمنصف أن يشكّك في دور علماء الدين والحوزة العلمية في حياة الأمة وإنقاذها من الكوارث، والجهل والضلال، والغزو الفكري والثقافي؟ ولا ننكر أنّ هناك قصوراً، وتقصيراً، وهنات، وهفوات، كما لا ننكر وجود عناصر غير قليلة اتخذت من الحوزة منطلقاً لمصالحها، وأهوائها، ولكن الأصل في طلب العلم هو وجه الله تعالى.

الإصلاح الحوزوي في نظرة تاريخية:

إن قضية الإصلاح والتغيير في الحوزة العلمية - وهو موضوع بحثنا - مسألة قديمة يقدم الحوزة تطرح بين حين وآخر كلما شعر العلماء العاملون بمشكلة لها مساس بواقع الحوزة التربوي، أو الفكري، أو الأخلاقي، وهذا الأمر طرّح منذ عصر الشيخ الطوسي حين شعر بالتحدي الفكري الذي يواجهه أتباع أهل البيت^٨، وعلى هداية سار العلماء

في مختلف مراحل التاريخ، وعلى الخط نفسه أدرك العلماء المعاصرون من علمائنا ضرورة إصلاح الحوزة العلمية والنهوض بها إلى مستوى متطلبات الزمان. وهكذا يتأكد لنا ضرورة استمرارية الإصلاح والتغيير في المناهج التعليمية والتربوية، وإن هذا الأمر ضرورة لا مفر منها؛ وذلك لتغير متطلبات الزمان التي لها تأثير مباشر على طبيعة العلاقات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية؛ ولذلك رأينا أن المبادرين إلى الإصلاح من العلماء كانوا ممن يتسمون بالوعي الرسالي، والغزارة العلمية، والحرص على مصالح الإسلام، منطلقين من خلال شعورهم بالمسؤولية أمام الله تعالى. فما انطلق الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء إلا لأجل تطوير الحوزة العلمية إلى المستوى اللائق الذي يتناسب مع المهام التي تضطلع بها، والأهداف التي تتحرك لأجل إنجازها كالمحافظة على سلامة العقيدة الإسلامية، وترسخها في نفوس الأمة، ونشر أحكام الإسلام وتبليغها على أوسع نطاق ممكن في العالم، وإبراز الإسلام كقوة فكرية عقائدية، ونظام كامل شامل لجميع شؤون الحياة الإنسانية، والدفاع عنه إزاء الهجمات الفكرية، والثقافة الغربية والشرقية، كل ذلك لا بد من أن يتم بتوفير لوازمه الأساسية، وأهمها تربية أعداد كبيرة من العلماء: مفكرين، وكتاب، ومدرسين، وخطباء؛ ليحملوا رسالة الله تعالى إلى البشرية أجمع؛ ولهذا كان مشروع الإمام كاشف الغطاء + مشروعاً رائداً محافظاً على المنهج السليم للحوزة العلمية كدراسة العلوم الأولية التي تعد الأساس الذي يقوم عليه الكيان العلمي حين الانتقال إلى مرحلة التخصص العلمي، أو ما يسمى بالبحث الخارج؛ ولهذا أكد على اختيار الأساتذة الكفوئين المختصين، مع تقويم الكتب الدراسية، أو تبديلها، واختيار الطلاب على أسس علمية منهجية تراعي كفاءتهم ورغباتهم العلمية، مع تعديل المناهج الدراسية من خلال إعادة النظر فيها، وأخضع كل ذلك للتخطيط العلمي المدروس، وسيادة النظام، واستقلالية الحوزة، وتقدير الحاجات الواقعية للطلاب والأساتذة، وتقديم الأولويات، والتأكيد على الوحدة بين الدين والسياسة، والاستفادة من التطور العلمي للمناهج التعليمية والتربوية في العالم، وأكد على التخصص العلمي في الحقول الإسلامية المختلفة، شريطة أن يتم

كل ذلك بطريقة العمل الجماعي، أي أن يكون ذلك اتجاهاً عاماً في خط سير الحوزة. كل ذلك طرحه الإمام كاشف الغطاء، إلا أن الحقبة الزمنية التي عاشها هذا المجدد العملاق كانت حقبة تخلف فكري وسياسي، ومع ذلك حقق قليلاً من مشروعه الضخم هذا، وبقيت تعاليمه وتوجيهاته تنير الدرب للأجيال.

ومن المشاريع الإصلاحية ما طرحه جماعة من علماء النجف الأشرف باسم (جمعية منتدى النشر) التي قام بها مجموعة من العلماء منهم الشيخ جواد الحجامي، والشيخ محمد حسين المظفر، والسيد علي بحر العلوم، والشيخ محمد رضا المظفر، وأنتجت تأسيس مدارس، وكلية الفقه مع المواجهة العنيفة من التقليديين الذين يتخوفون من كل جديد قادم.

وهناك محاولات إصلاحية لاحقة وسابقة، قام بها كثير من العلماء استمرت إلى بداية النصف الأول من القرن العشرين التي برزت بها مرجعية الإمام الحكيم &، التي باشرت بعدة مشاريع إصلاحية علمية، وتبليغية؛ منها إنشاء المكتبات في مختلف أنحاء العراق، وفتح مدرسة العلوم الدينية بدراسات مركزة لتسريع تربية العلماء والمبلغين. وإلى هنا برز السيد الشهيد الصدر كأستاذ في الحوزة، وكاتب مجدد، ومفكر عبقرى، وقد استوعب هذه التجارب كلها، ودرس نقاط الضعف والقوة، وحدد مواضع الإخفاق فيها؛ ولهذا أصبح صاحب رؤية ثابتة دقيقة، ووعى متطلبات المرحلة؛ لمواجهة التحدي السياسي والفكري، وواجه المد الإلحادي بطريقة علمية رصينة أبهرت العلماء، والمفكرين، وراح يفكر، ويخطط؛ ليحقق في الحوزة تياراً رسالياً قائماً على أساس البحث، والدراسة، والتخطيط للمستقبل، فحدد نقطة البداية لانطلاقته، فبرز كأستاذ عميق الغور في العلوم الحوزوية المعروفة، وكاتب على مستوى عال، صاحب نظرية جديدة، وإبداع وابتكار غير مسبوق، في التربية والتعليم، والاقتصاد، والاجتماع، والفلسفة، والسياسة...

ونتيجة نبوغه العلمي، وُضع إلى صف علماء الطبقة الأولى مع صغر سنه حتى أصبح محط نظر أعظم الحوزة العلمية كالسيد الخوئي، والشيخ مرتضى آل ياسين، والسيد

الحكيم، ولفت أنظار المفكرين والكتّاب من خارج الحوزة العلمية، حتى أصبح موضع آمال الواعين لنهضة إسلامية كبرى، وهكذا راح يخطط لمشروع نهضوي كبير، وكان متدرجاً في طروحاته الفكرية، والاجتماعية.

خطوات الشهيد الصدر في الإصلاح الحوزوي:

يمكن اختصار خطوات مشروعه الإصلاحي في الحوزة ضمن نقاط:

الخطوة الأولى:

لعلّ أول نقطة في مشروعه الإصلاحي هو إعادة المفاهيم الإسلامية إلى معناها القرآني الصحيح ولا سيما المفاهيم التي حرّفت عن معناها الإسلامي الصحيح التي أصبحت سائدة ورائجة في أغلب الأوساط الاجتماعية كمفهوم الدين، والإسلام، ومفهوم الولاية، والخلافة، والشهادة، والمتدين، ونظرته إلى الحياة الدنيا، والعبادة، والعمل الصالح، ومفهوم السياسة، والاقتصاد، والاجتماع؛ فراح يطرح المفاهيم الإسلامية في محاضراته وكتاباته، ويؤشّر إلى الفهم المغلوط، ويعيد إلى الأذهان معناها الصحيح الموافق للكتاب والسنة، وهو بهذا أراد أن يعيد الناس إلى الكتاب والسنة، وأنهما المرجع الفكري العقائدي، والمنهج السلوكي الأخلاقي في كل مجالات الحياة الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والأخلاقية، فمنهما يأخذ، وبهما يسترشد، وفي أنوارهما يسير؛ ولذا كتب في مقدمة رسالته العملية (الفتاوى الواضحة) أنه في جميع فتاواه لم يعتمد على الدليل العقلي والإجماع، وإن كان يؤمن بهما، وأكد أن (كل ما يثبت بالدليل العقلي، فهو ثابت في نفس الوقت بكتاب أو سنة)، وأن الإجماع (لا يعتمد عليه إلا من أجل كونه وسيلة إثبات في بعض الحالات. وهكذا كان المصدران الوحيدان هما الكتاب والسنة... ومن استمسك بهما ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤).

وعلى سبيل المثال نشير إلى بعض المفاهيم التي صحّحها، وأعادها إلى معناها الإسلامي الأصيل، مثلاً: كلمة الدين والإسلام، فيقول في تحديد مفهوم الدين كما في صفحات مجلة الأضواء: <الدين ليس كلمات جامدة ترددها الشفاه، ولا طقوساً تقليدية تؤديها

العضلات، وإنما هو عقيدة، وكيان، ومنهج في التفكير^(٥). وبهذا التحديد الدقيق نسف ما راج لمدة طويلة: أن الدين علاقة فردية بين العبد وربّه، ولا شأن له في تنظيم الحياة، وراح يؤكد في كل مناسبة بأن الدين هو المنهج، والدستور للحياة، والنظام الجامع الشامل لجميع شؤون الحياة، فيقول في أحد محاضراته: <ويقصد من تبليغ مفاهيم الإسلام: بيان كل معطيات الإسلام والجوانب التشريعية، ويجب أن تبين على أساس شمول الإسلام لكل جوانب الحياة، فلا يقتصر على جانب دون جانب، بل يطرح الإسلام كنظام كامل شامل للحياة>^(٦).

وعلى صفحات (فلسفتنا) أكد أن الإسلام هو النظام الكامل الشامل لجميع نواحي الحياة، فيقول: <هذا هو الإسلام في أخصر عبارة، وأروعها، فهو عقيدة معنوية وخلقية، ينبثق عنها نظام كامل للإنسانية، يرسم لها شوطها الواضح المحدد، ويضع لها هدفاً أعلى في ذلك الشوط، ويعرفها على مكاسبها منه>^(٧).

وهكذا بقية المفاهيم كمفهوم الفقه، والتفقه في الدين، وأن التفقه ليس أن يخصص الفقيه للعلم، ويجرده للبحث النظري، ويقطع صلته بواقع الحياة الخارجية؛ لأنها خارج نطاق عمله^(٨).

إذن يمكن القول أن أول خطوة خطاها السيد الشهيد الصدر + في مشروعه الإصلاحية هو تصحيح المفاهيم الإسلامية، وإعادتها إلى نصابها الصحيح الذي أراده الله تعالى في كتابه، وسنة رسوله ، وهي خطوة رائدة في الخط الصحيح؛ لأنه ما لم تعد المفاهيم الصحيحة إلى عقل الإنسان، وتنساب إلى قلبه لا يمكن تغييره نفسياً وفكرياً على الأقل. الخطوة الثانية:

اتخذ من الحوزة منطلقاً أساسياً لعملية التصحيح والتغيير، وفي هذا المسار أكد: <إن الإصلاح يتم عبر ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تهيؤ القاعدة، والجهاد، والحوزة الصغيرة البنت الواعية.
المرحلة الثانية: مرحلة التنفيذ الجزئي «حيث» تكتسب هذه الحوزة البنت صفة جزئية لحوزة الأم، فتبدأ تنفيذ مخططاتها جزئياً.

ثم في المرحلة الثالثة، المرحلة التي تُسيطر فيها هذه الحوزة البنت سيطرة كاملة على الحوزة الأم، في هذه المرحلة يبدأ التنفيذ الكامل للمخططات^(٩).
ثم بعد ذلك قسّم الوجود الحوزوي إلى وجودين مترابطين متلازمين لا ينفك أحدهما عن الآخر، هما الوجود الذاتي، والوجود الوظيفي، وفسر الوجود الذاتي بقوله: <تارةً ينظر إلى الحوزة بالمعنى الاسمي، وأخرى ينظر إليها بالمعنى الحرفي، وبتعبير آخر: إنه تارةً ينظر إلى الحوزة باعتبارها الذاتي، باعتبارها مجموعة من الأشخاص والأفراد، وأخرى ينظر إلى الحوزة باعتبارها الوظيفي، باعتبار دورها ووظيفتها التي تمارسها في الأمة الإسلامية، فهنا اعتباران للحوزة، اعتبار ذاتي ينظر فيه إلى الأفراد بما هم أفراد، واعتبار وظيفي ينظر إلى علاقات الحوزة مع الأمة، وكيفية ممارسة الحوزة لوظيفتها على مسرح العمل مع الأمة>^(١٠).

وبعد أن أوضح هذا التقسيم للحوزة أكد أن الإصلاح يجب أن يشمل كلا القسمين، وإن كان الوجود الوظيفي للحوزة أهم من الوجود الفردي لها، إلا أن الإصلاح الذاتي هو أحد شروط الإصلاح الوظيفي، فلا يمكن تحديد الوظيفة للحوزة قبل إصلاح أفرادها؛ وذلك (لأن الإنسان إذا لم يكن في نفسه طيب النفس منفتحاً على الخير وعلى الطاعة، حينئذ من العسير أن يكون أداة طاعة بالنسبة إلى الآخر، هذا صحيح، ولكن هذا لا يكفي لإصلاح الوجود الوظيفي؛ فإن الوجود الوظيفي بحاجة إلى نوع من الثقافة، والتوعية الفكرية أولاً، وهذا النوع من التوعية الفكرية والاطلاع نحن نحتاج أن يكون اطلاعاً موحداً)^(١١).

إذن فالسيد الشهيد + حدّد للحوزة نحوين متلازمين هما الوجود الذاتي، والوجود الوظيفي، والغرض من ذلك إعداد الذهنية الحوزوية لنوعين من البناء والتغيير، وجعل التغيير الذاتي منطلقاً للتغيير الاجتماعي، فما لم يع الطالب الحوزوي وظيفته لا يمكن أن يكون حاملاً لراية الإسلام، ومبشراً بها، (فلا بدّ إلى جانب بناء الإنسان الصالح ذاتياً، أن يبنى فيه الصلاح وظيفياً أيضاً، بأن يُوعى، ويُثقف على دوره الوظيفي، وعلاقاته مع الأمة الإسلامية)^(١٢).

ثم راح يؤكد: <إن الصّلاح الذاتيّ لا يكفي لخلق عصمة ومناعة لعدم الانحراف في خطّ العمل الوظيفيّ> (١٣).

وبعد أن حدّد المفهوم الحقيقيّ للحوزة في كلا طرفيها الذاتيّ والوظيفيّ، وأكد توقّف إحداهما على الآخر حدّد الخطوط العريضة لوظيفة الحوزة، وسيرها في خطّ الإصلاح، فوظيفة الحوزة كمسؤوليّة رساليّة تحمل همّ الإسلام بثلاث وظائف:

أولاً: <عليها أولاً تبليغ مفاهيم الإسلام، وأحكامه، ومعطياته في كلّ جوانب الحياة>. وثانياً: التبشير والدّفاع، وصيانة الأفكار لحفظ أصالة الإسلام كما أنزله الله، وتخليصه من غريب ينسب إليه، أو يلصق به وليس منه كالإسرائيليات، والأساطير والخرافات، والموضوعات من الأحاديث التي وُضعت زوراً وبهتاناً على رسول الله وأهل بيته صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

وثالثاً: حماية الإسلام عملياً، وواقعياً، وخارجياً بالتبليغ> (١٤).

ولتنفيذ هذا المخطّط العملاق أخذ السيّد الشهيد يعدّ العدة من خلال الحوزة لبناء ثلّة من الطّلبة بقدر ما تسمح به الظروف القائمة؛ ولهذا رأيناه أنه تبنّى من الطّلبة من توسّم فيه الذكاء، والإخلاص، والنشاط، والقدرة على الاستيعاب، والنبل، والشّهامه، والتّطور، والفعاليّة الحركيّة، وكان يواصل متابعة الدّين يتوقّع فيهم النّبوغ؛ ليرسم لهم طريق العلم والعمل؛ ولهذا كان يحدّد للطّالب المسترشد تعليماته فيما يجب أن يواصل تحصيله على المستوى العلميّ الثّقافيّ، والمستوى التربويّ الأخلاقيّ، وعلى اكتساب الخبرات الفنيّة للعمل الرّساليّ، فيقول لأحد القادمين للحوزة توّاً، وقد طلب منه تحديد خطوات الدراسة: <على طالب العلم أن يعمل في تحصيله العلميّ والثّقافيّ على عدّة محاور:

المحور الأول: دراسة العلوم الحوزويّة ولا سيّما المقدمات والسّطوح بشكل محكم رصين؛ ليؤسّس للبناء التّحتيّ لمستقبله العلميّ، فعلى الطّالب أن يجدّ ويجتهد لاستيعاب العلوم الحوزويّة الأوّليّة كعلوم اللّغة العربيّة من النّحو، والصّرف، والبلاغة، وغيرها، وعلم المنطق، وضبط أوّليات الفقه الإسلاميّ؛ ليستطيع استيعاب المستوى الأعلى بشكل أعمق

المحور الثاني: توسيع الدائرة الثقافية بعدم الاقتصار على العلوم الحوزوية الآلية، وإنما يجب تنمية العناصر المعرفية الأخرى كعلوم القرآن، والسيرة، والتاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الأخلاق، والعلوم الفلسفية والاقتصادية، وجميع ما يتطلبه الزمان؛ لخدمة الإسلام، وخلاصة الكلام أن على الطالب أن يجد في تحصيل الثقافات المختلفة.

المحور الثالث: التنمية الروحية، أي تقوية عنصر العلاقة مع الله تعالى بصورة تفصيلية، وأن يعيش تطبيقاً حياً لهذا الاتصال بالله تعالى، وأن على الطالب أن يبذل كل وجوده، وإمكانياته في تنمية الشعور بالعبودية لله تعالى، وأن لا ينسى الله تعالى في كل حالاته، وعليه أن يجعل العلم وسيلة لتنمية هذا الشعور، وهذا ما كان يكرره دائماً، ويعبر عنه ببناء المحتوى الداخلي، فالروحانية مقرونة بالعلم، والعكس صحيح، فلا يكون العلم إلهياً ما لم ينتج روحانية فياضة، وجزوة إيمانية مشعة، ولا يتحقق ذلك بدون المعارف الإلهية.

المحور الرابع: وجوب تعلم وامتلاك الأدوات الرسالية، ويقصد بالأدوات الرسالية: الفنون العملية للتبشير، والإرشاد، والهداية، والتبليغ كفن الحوار، وفن الكتابة، وفن الخطابة، فهذه الفنون أدوات ووسائل؛ لخدمة الإسلام، وما لم يتقنها طالب العلم لا يستطيع تعريف الإسلام للناس، ولا نشره، ولا تبليغه، ولا حمايته^(١٥).

وفي تطور آخر كان يحث على تطعيم الحوزة بعناصر شابة جديدة، فمن خلال زيارات الشباب الجامعي له، ومراجعتهم له، أخذ يرغب من يتوسم فيه الصلاح، والقدرة على المواصلة في التحصيل العلمي بالانضمام إلى الحوزة العلمية، وفعلاً استجاب عدد لا بأس به من هؤلاء، وكان لهم دور فعال إلا أن يد الظالمين لم تمهله لمواصلة مشروعه، ومع ذلك فقد خرج عدداً كبيراً من فضلاء الحوزة، وأصبحوا مبلغين ناجحين، وكتاب ماهرين، وأساتذة حوزويين إلا أن يد الظلم امتدت إلى إبادتهم.

الخطوة الثالثة:

من الخطوات الأساسية في إصلاح الحوزة العلمية أخذ يفكر في تبديل المناهج الأساسية

في الوسط الحوزوي، ولا سيما في الفقه والأصول، وقد بين مبررات ذلك في مقدمة كتابه (دروس في علم الأصول)، وما أنجزه من ذلك هو الكتاب المذكور في علم الأصول، واليوم شقَّ الكتاب طريقه في الحوزات العلمية الرئيسة في النجف الأشرف، وقم، ولبنان، وغيرها، مع وجود المقاومة العنيفة من التقليديين الذين يريدون أن يبقى الوضع على ما هو عليه، حتى أن بعض الحوزات لا تزال ترفض الاعتراف به، وترفض اختبار الطلاب بالحلقات الثلاثة، مع اعترافها بعمقها.

وكان (يفكر في كتابة مشروع في الفقه (دروس في علم الفقه) على نفس منهجية وأسلوب (دروس في علم الأصول)، فقد وضع فيما بعد مخطط الكتاب وهيكلته إلا أن يد الإجماع امتدت إليه قبل أن يتمكن من تحقيق ذلك)^(١٦).
الخطوة الرابعة:

وأما موقفه من تنظيم الحوزة العلمية، فهو يرى أن تنظيم الحوزة ضرورة لا بد منها، وأكد وجود اتجاهين: اتجاه يرى أن تنظيم الحوزة لا ضرورة له، وهو (خروج على العرف المشروع الذي كانت تعيشه الحوزة منذ مئات السنين)، بل يرى بعضهم أن تنظيم الحوزة في عدم التنظيم؛ وهناك اتجاه آخر (يؤمن بأن التنظيم شيء ضروري للحوزة من الوجهة التدريسية، وأساليبها، وطرائق حياتها، وألوان ممارستها لأعمالها العلمية والتقليدية، وبالرغم من أن الدعوة إلى التنظيم في الحوزة لا تمتد إلى أمد بعيد)^(١٧).
أما السيد الشهيد الصدر فلا يعدّ التنظيم إلا وسيلة، وأداة لا غاية قائمة بذاتها، ويخطط لما بعد التنظيم، (فالحوزة بمجرد أن تنظم لا يعتبر كل شيء؛ لأننا بحاجة إلى أن نحصل بجانب التنظيم على درجة من التضحية الدينية، والتحفّظ على المكاسب الموجودة، وعلى الغاية)^(١٨).

إذن السيد الشهيد لا يرى التنظيم ضرورة إلا لكونه وسيلة ترتقي بها الحوزة إلى المستوى العلمي الرفيع؛ ليوقد شعلة الإيمان في النفوس، ويلهب روح الحماس الرسالي الذي يفجر الطاقات في الأفراد، وفي الأمة؛ لتوعية الناس برسالة الله تعالى، ويدفعهم للتضحية في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

الخطوة الخامسة:

من المشاريع المهمة التي تبناها السيد الشهيد الصدر مشروع التبليغ، وقد وضع له مخططاً لاستيعاب كل مناطق العراق، وملاها بالعلماء الواعين؛ ولأجل نجاح المشروع تحرك على أستاذه السيد الخوئي، و(قصده في بيته، واقترح عليه تشكيل مجلس للإرشاد، والتبليغ، وقد اقترح السيد الخوئي مشروعاً يقضي انعقاد مجلس من العلماء الأفاضل بإشراف السيد الصدر &، ويتحمل هذا المجلس مسؤولية التبليغ والإرشاد في الأمة، ويتكفل اختيار الوكلاء والمبلغين الأكفاء، وتلبية نداءات جماهير الشعب المسلم في مختلف مناطق العراق، على أن تناط المسؤولية الحقيقية بالسيد الصدر &، بينما يلتزم السيد الخوئي & برعاية هذا المجلس ويتبناه^(١٩).

وواصل السيد الشهيد الصدر + حث طلابه ومريديه على مواصلة التبليغ، ويقول لهم: <أنتم علماء لأنكم مبلغون، وبقدر ما تخدمون الإسلام على مستوى التبليغ والهداية، والتبليغ خير محقق للعلمائية، فليست العلمائية بالعلم الذي يملأ القلوب، ويدفئ الصدور فقط، بل هو بالتبليغ الذي يؤدي إلى تغيير واقع فاسد في حياة المسلمين، والعلم الذي يحفظ في الصدور هو العلم المشلول، وهو الذي يسأل عنه صاحبه يوم القيامة، ويعاقب عليه>، وكان يكرر هذه المعادلة: <التبليغ هو العلم، والعلم هو التبليغ>^(٢٠). وكان له نمطان من المبلغين؛ مبلغين على النحو الدائم، وذلك بالإقامة في المنطقة، وإقامة الصلاة، وخدمة الناس بالهداية، والإرشاد، والتوعية، وهناك نمط آخر، وهو التبليغ لمدة يوم إلى ثلاثة أيام في الأسبوع، وفي محرم ورمضان، والمناسبات الدينية، والعطل الحوزوية، وكان يؤكد على الطلاب بوجوب الالتزام الدقيق في الواجبات، والمستحبات، والتخلق بالخلق الإسلامي الرفيع؛ ليكون المبلغ قدوة وأسوة للناس، وكان يوصي بالترفع عن أخذ الأموال، والمشاركة مع الناس، بل يوجب عليهم التحرك على الناس، والانفتاح عليهم، والتحرك على جميع الطبقات الاجتماعية، ومراعاة حاجات الناس، ويسأل عنه في جميع طروحاته وتصرفاته؛ ليصحح المسار، ويقوم مدى نجاحه وفشله، ويؤكد دائماً أنه يرسل المبلغين كهداة للناس، لا جباة للحقوق الشرعية.

ونتيجة هذه الحركة المباركة انتشر الوعي الديني ولا سيما في الأوساط المثقفة، وامتد أثره في المدارس والجامعات مع ضغوط السلطة البعثية، وشبهات تجار الدين الذين كانوا يخلقون العوائق أمام كل وكيل من وكلائه.

وكان + يصعد في نفوس وكلائه روح الإخلاص، والتجرد لله، والترفع عن المكاسب المادية؛ ليكون لهم الدور المؤثر في تغيير الواقع بتغيير نظرة الناس إلى العالم الديني، فمثلاً يوصي وكلاءه في المناطق، فيقول: <إن الناس تريد من العالم الديني روحانية وعلم، فعليكم أن تقتدوا بإمامكم أمير المؤمنين عليّ x في محرابه، وسيرته، وخضوعه لله؛ لأن الناس لا تريد علماً بغير روحانية، وقد أقبل عليكم شهر رمضان المبارك، وهو شهر التزود من الروحانية، عاملوا الناس بمودة ومحبة وأمانة حتى يتوجهوا إلى الإسلام الذي هو غاية الجميع> (٢١).

فمثلاً بعد أن طرح اسم الشيخ محمد علي الجابري؛ ليكون وكيلاً في منطقة الكوت في آذار- نيسان / ١٩٧٩ م خاطبه السيد الصدر & قائلاً: <ثق بالله، لولا مسؤولية المرجعية، ومسؤولية التدريس لذهبت بنفسي للتبليغ في أهوار الكوت> (٢٢).

بتلك الروح الطاهرة والحماس الرسالي كان يخلق في نفوسهم ثورة العشق الإلهي لتبليغ رسالة الله، وإن كنت أنسى فلا أنسى يوم حدثته عن إنجازات الشهيد السيد عباس الحلو، والشيخ عبد الأمير الساعدي (رحمهما الله تعالى)، وأخبرته أن الناس قدّموا للشيخ عبد الأمير مبلغاً من المال في آخر رمضان، فرفضه، وقال لهم: <إن السيد الصدر هو الذي يعطيني>، فسجد شكراً لله، وأخذ يبكي بحرارة، وهو يردد: <إلهي لك الشكر والمنة، وهكذا فليكن طالب العلم داعية الإسلام>.

الخاتمة:

تجلى لنا من خلال البحث أن الإصلاح الحوزوي كان هدفاً بارزاً في مسيرة العلماء والفقهاء العاملين كالإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء، والسيد محسن الحكيم، والشيخ محمد رضا المظفر، وقد أفاد السيد الشهيد الصدر من تجاربهم السابقة بدراستها، وتقويم نقاط الضعف، وتسديد نقاط القوة.

وباختصار كان مشروعه الإصلاحي ضمن خطوات عدة، منها:

- ١- إعادة المفاهيم الإسلامية إلى معناها الحقيقي في القرآن والسنة الشريفة.
- ٢- اتخاذ الحوزة العلمية منطلقاً أساسياً لعملية التصحيح والتغيير، والإصلاح في منهجه & يقع ضمن مراحل ثلاث، وهي: تهيئة القاعدة التي يقوم عليها المنهج ببناء حوزة صغيرة في وسط الحوزة الكبيرة؛ لتكون مثلاً رائداً في الإصلاح والتغيير، والخطوة الثانية هي إكساب الحوزة المصغرة داخل الحوزة الكبرى موقعاً نموذجياً مؤثراً، وفي الخطوة الثالثة أعطى للحوزة النموذجية موقعية كبرى، لتسيطر سيطرة كاملة على الحوزة الأم؛ ثم قسم الوجود الحوزوي على وجودين مترابطين متلازمين هما الوجود الذاتي، والوجود الوظيفي، وبعبيره رضوان الله عليه قال: <تارة ينظر إلى الحوزة بالمعنى الاسمي، وأخرى ينظر إليها بالمعنى الحرفي>، أي ينظر إلى الحوزة باعتبارها مجموعة من الأفراد والأشخاص، وأخرى ينظر إليها باعتبارها الوظيفي الذي تمارس فيه دور البناء والتغيير والإصلاح.

- كما حدد وظائف الحوزة بتبليغ المفاهيم الإسلامية، والأحكام الشرعية، وبيان معطياتها في كل جوانب الحياة، وبالتبشير والدفاع وصيانة الأفكار؛ لحفظ أصالة الإسلام كما أنزله الله تعالى، وحمايته عملياً وواقعياً وخارجياً بالتبليغ.
- ٣- العمل على تغيير المناهج السائدة في الحوزة العلمية، ولا سيما في الفقه والأصول، وعلم الدراية وتفسير القرآن.

- ٤- كان يؤكد على أن تنظيم الحوزة ضرورة لا بد منها ضمن البعد العلمي والعملي التربوي، وأن التنظيم الحوزوي ما هو إلا وسيلة وأداة لا غاية قائمة بذاتها، وكان يخطط لما بعد التنظيم.

- ٥- تبنى مشروع التبليغ الإسلامي ووضع مخططاً لاستيعاب كل مناطق العراق وملئها بالعلماء الواعين؛ ليكونوا مبلغين ومعلمين ومربين، وكان يقول لطلابه الوكلاء عنه: <أنتم علماء لأنكم مبلغون، وبقدر ما تخدمون الإسلام على مستوى التبليغ والهداية، والتبليغ خير محقق للعلمائية>.

ومن هنا يمكن القول: إنَّ الإصلاح في منهج الشهيد الصدر & عقيدة تدفع وترفع وتحرك، وإرادة تمنح الصبر والصمود لمواصلة السير، وخطة تحدد خطوات المسار في البعدين الزماني والمكاني، وهدفية واضحة بينة منطلقة من الدوافع الرسالية لا المنافع الذاتية؛ لتغيّر الواقع الفاسد إلى واقع سليم، والسّر في ذلك أن قيمة العمل في الإسلام بالدوافع لا المنافع، وبتعبيره رضوان الله عليه: <فليست قيمة العمل في الإسلام بما يحققه من نتائج ومكاسب للعامل أو للناس أجمعين، بل بما ينشأ العمل عنه من دوافع ومدى نظافتها وموضوعيتها، وتجاوزها للذات> (٢٣).

وعلى كل حال لقد كانت إرادة الإصلاح وروحيته متجسدة في شخصية الصدر قلباً وقالباً، مفهوماً ومصداقاً؛ نلمسها ونحسها منه في كل حركة يتحركها، وفي كل كلمة يقولها، فتشعر أنه كان يحاول أن يضع بصمات الإصلاح والتغيير أينما حلّ وأينما ارتحل، وبمن التقى، فبمجرد أن تلتقيه يشعر أنك داخل في قلبه، وهو يحاول أن يبعث في من يلتقيه روحيته المصلحة المغيرة؛ ليضعه على الجادة الوسطى، ويمنحه الراحة والسعادة والطمأنينة، ويفجر في نفسه ثورة على الفساد والفاستدين بصورة منهجية منظمة، وجاذبية أخاذة تملك على الإنسان عقله وقلبه ومشاعره وأحاسيسه؛ ولذا عشت مع السيد الشهيد الصدر عشر سنوات كنت ألمس فيها منه روح الإصلاح والتغيير منبعثة من قوة الإيمان، ومضاء العزيمة، ونور البصيرة، وإخلاص النية، ونزاهة الدوافع لصناعة الإنسان الإلهي بكل ما للكلمة من معنى.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.
الهوامش:

(١) خلاصة الأقوال في معرفة الرجال: ص ٧٣-٧٤.

(٢) اختيار معرفة الرجال: ج ٢، ص ٦٢٢.

(٣) ومضات: ص ٣٨٢.

(٤) ينظر: الفتاوى الواضحة: ص ٩٨.

(٥) المدرسة القرآنية: ص ٣٦٤.

(٦) ومضات: ص ٣٩٧-٣٩٨.

- (٧) فلسفتنا: ص ٥٠.
- (٨) ومضات: ص ٣٧٤.
- (٩) المصدر نفسه: ص ٣٨٩.
- (١٠) المصدر نفسه: ص ٣٩٠.
- (١١) المصدر نفسه: ص ٣٩١-٣٩٢.
- (١٢) المصدر نفسه: ص ٣٩٢.
- (١٣) المصدر نفسه: ص ٣٩٢.
- (١٤) المصدر نفسه: ص ٣٩٧.
- (١٥) نقلنا هذه المحاور نقلاً بالمضمون عن تلميذه السيد عبد الله الغريفي.
- (١٦) شهيد الأمة وشاهدها: ج ١، ص ٣٦٤.
- (١٧) ينظر: ومضات: ص ٣٨٦.
- (١٨) المصدر نفسه: ص ٣٨٧.
- (١٩) محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق: ج ٢، ص ٣٦٤.
- (٢٠) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٣٠٩.
- (٢١) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٣١٠.
- (٢٢) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٣١٠.
- (٢٣) الفتاوى الواضحة: ص ٥٩٢.

المصادر والمراجع:

١. اختيار معرفة الرجال، الشيخ الطوسي، تصحيح وتعليق: المعلم الثالث مير داماد الاسترابادي، تحقيق: مهدي الرجائي، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، قم، ١٤٠٤ هـ.
٢. خلاصة الأقوال في معرفة الرجال، العلامة الحلي، مؤسسة نشر الفقاهة، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ.
٣. شهيد الأمة وشاهدها، الشيخ محمد رضا النعماني، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر +، الناشر: المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر +، قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٤ هـ.
٤. الفتاوى الواضحة، السيد محمد باقر الصدر +، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨١م - ١٤٠١ هـ: ص ٩٨.

٥. فلسفتنا، السيد محمد باقر الصدر+، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية عشر، ١٩٨٢م - ١٤٠٢ هـ .
٦. محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق، أحمد عبد الله أبو زيد العاملي، مؤسسة العارف للمطبوعات، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م .
٧. المدرسة القرآنية، آية الله العظمى الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر+، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر+، الناشر: مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر+، قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٤ هـ .
٨. ومضات، آية الله العظمى الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر+، إعداد: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر+، الناشر: مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر+، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ .